الذاكرة والمخيّلة: حوادث شخصية

صور افتراضية لتصورات مفترضة

وسيم الكردي

لقد حدثَ ما حدث . . . لقد كنت هناك . . . صورته . . . أنا خارج الصورة!

لقد حدث ما حدث . . . أكتبه الآن . . . أنا داخل النص!

هل في ذلك وهم ما؟!

ما سأكتب فيه هنا متعلق بصورتي "الإسرائيلي" و"اليهودي" وتصوري لهما في ذاكرتي الشخصية، في محاولة للإفلات مما ترسمه الذاكرة الجمعية، ليس لأنها تختزل الرؤية الفردية فحسب، بل لأنها لا تمنح إمكانية لإنتاج ذاكرة جمعية جديدة دون اختراقها دوماً بذاكرة فردية تحاول أن تخترقها كلما أمكن لها ذلك، ولأن الخبرة الجماعية لحالة مشتركة هي بالضرورة خبرة فردية، ومعاً تتآلفان وتتخالفان. فما "سأصوره" و"سأتصوره" نابع من الاختبار المباشر للأشياء، وليس الاختبار المتواتر نقلاً من قبل الآخرين، إنه الصورة/التصور الذي يتشكل في فضاء قال فيه رولان بارث في وقت ما " . . . لنلغ الصور، ولننقذ الرغبة المباشرة (التي لا وسيط لها)" (بارث، 1998: 106). الصورة هنا فقط ملتزمة بما التقطه الجسد؛ بما أبصرته العين وما اخترق الأذن، وما لامس الجسد . . . . إنه عين المتذكّر وأذنه وجسده بكليته الذي هو أنا في هذا النص. وهنا محاولة للاشتغال بعين الخيال وعين الكاميرا معاً، وكلاهما لن يكون تمثيلياً "للواقع"، بل سيكون إنتاجاً تأويلياً له، وفي حضور الصورة أو غيابها، وفي حضور التصور أو غيابه، فإن جوهر الفعل لا يتغير، فمجرد الحضور أو الغياب لن ينطوي على تصديق هذا أو تكذيب ذاك، إلا في سياق المراوغة والخديعة التي يمكن لكليهما أن ينشأ فيه وبه وعليه، وهنا لا بد للعين الرائية في صورتيها (العين/العدسة والعين/المخيِّلة) أن تقرأ ما لا تقوله الصورة أو ما يجهر به التصور، وأن تحفر عميقاً فيما وراءهما كي لا يكون تداعي الصور أو التصورات ثرثرة تخفي لحظة الاشتباك أو تئدها.

الصورة، فيما سيرد من حادثات شخصية تالياً، ليست صورة فوتوغرافية، صورة حادة تحتمل التأويل في حدود ما أطرته الكاميرا لحدودها! الصورة هنا هي تلك الصورة التي لا تؤطرها الذاكرة بما هي ذاكرة، بل تغير أطرَها في حركة اشتغالها كذاكرة، تتسع هذه الأطر وتضيق؛ في الصورة الفوتوغرافية تتسع الصورة وتضيق باشتغال الخيال، أما في صورة الذاكرة المحبوسة في قيودها الزمنية، فإنها تتسع وتضيق بمقدار تحرر الذاكرة من إسارها أو انكماشها في أفق أفولها! إنها تشتغل على سياقيتها المتخيلة وليس على مرجعيتها الجاهزة، "فأي صورة مثقلة منذ البدء، وبفعل وضعيتها، بالكيفية التي يكون الموضوع بها مصطنعاً" (1998: 9).

في هذا النص أشتغل على الصورة الفوتوغرافية المفترضة/الغائبة صدفة أو قصداً، وكيف يمكن للرؤية أن تتغير في حالة افتراض وجود الغائب أو المغيَّب؟ هل ثمة إمكانية للاحتفاء بأحدهما كأن يقال مثلاً: آه لو كانت الكاميرا هناك، لو التقطت صورة . . . لكان ذلك أكثر تأثيراً . . . . كل لحظة قابلة لأن تكون صورة إذا غابت الكاميرا، وغيابها ليس شرطاً لغياب الصورة، فالصورة ممكنة بالكتابة، وبخاصة أن الصورة يمكن أن تكون حمقاء أو حكيمة (106). وبالمقابل، فإن "كل شيء ممنوح لي في الكتابة . . . وهناك من الثنائيات في هذا الكون ما "يمكن تصويرها"، لكن لا يمكن إدراكها [بصراً]" (9).

وما بين اشتغال الذاكرة واشتغال الخيال معاً ومتضافرين، ينهض التصور الذي يتيح خلق صور أخرى لما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين ما حدث بوصفه ماضياً وما يحمله لنا، بوصفه حاضراً، من بذور لتشغيل المخيلة لممكنات صور أخرى، صور قد تكون ممكنة إذا رغب الخيال في أن ينفلت من عقال الذاكرة كي يشّكل ما يبتغيه التصور خارج حدود الإطار والقيد أيضاً. وأن لا يكون أسيرَ تأويل مرجعي صارم يلوي ممكنات ما يمكن أن يكون في داخل الإطار فيزيحه، فتبدو صور المستشرقين مَثلاً لفلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بلا بشر، وفي أحسن الأحوال لرهبان وقديسين ورعاة، إنها "الصورة" التي تقرِّب الجغرافيا من "الله" وتقصي بشرَها عنها وعنه. أو أن يخترع "التصور" المعادل لهذه الصورة حين يراها لغةً بأنها جغرافيا فارغة، إلا من حفنة من بدوٍ رحَّل؛ فتستوي له الأرض والسماء معاً في لبوسين من "صورة وتصور".

كل الحادثات التالية لا صورة فوتوغرافية لها، أي لا أيقونية تمثلها، كلها

حدثت بعيداً عن عين الكاميرا كما كانت الكاميرا بعيدة عنها أيضاً، لم يلتقطها أحد، كما أن أشكال "التوثيق" أو الالتقاط الأخرى لم تشتغل على "تثبيتها"، فما يثبتها هنا هو الاسترجاع واشتغال الذاكرة. فأكثر ما يجري في الحياة لا تلتقطه عين الكاميرا، إن ما تلتقطه العدسة هو الاستثناء فقط، استثناء يقيم حضوره على قانون الانتقاء والإقصاء الصارم. وما يريح في ذلك، وينقل القلق من تأويل مؤطر إلى تأويل غير مؤطر هو أن الصورة دائماً ليست معادلاً يمثل الواقع ... إنها افتراض آخر! على الرغم من أن فيها من الغواية ما يضع المتفرج في شرك "واقعيتها"، وهذه غواية أكثر "إقناعاً" من غواية "الكلام" في هذه الحال.

استرجاع صور في هذا النص لا ينحو إلى قص ما حدث، بل يميل إلى اختلاق تصور لما يمكن أن تكون عليه صور زمن لم يأتِ بعد، صور يمكن لعين الكاميرا أن تلتقطها، ويمكن لعين الخيال أن تبتدعها، ولكنها صورٌ "تَأملُ" في أن لا تكون هي تلك المحقونة بالتسليع؛ "الصورة هي السلعة اليوم، لذا لا طائل من توقع نفي لمنطق إنتاج السلعة منها، ولذلك فكل الجمال اليوم زائف، وانجذاب علم الجمال المعاصر له مناورة أيديولوجية وليس مورداً للإبداع" (جيمسون، 1998: 122).

فهل الصورة التي تتيحها التكنولوجيا اليوم أكثر من أي وقت مضى تستطيع أن تختزل ما تخبئه الذاكرة في ثناياها، أم أن الذاكرة هي التي تستطيع أن تختزن ما تضمره الصورة أم كليهما معاً؟ إن فعل المقاربة المشهدية هنا يغدو فعلاً لا يضع "تصوراً" "وتصوراً" آخر في ميزان المقارنة؛ إنه تصور انبنى على نصوص تمنحها الذاكرة ونصوص ترسمها الكاميرا، ويشتغل على تجديلهما أو إرخائهما على جسد فعل الزمن ذاته في حركيته الماضية والراهنة والآتية كما خبرته أنا.

إن عمراً انقضى بكل أعوامه وما فيها من صور وأطياف صور وظلال ... اختبرَ "صوراً" تتدفق على جسده ومن جسده، صوراً لم تتح إنتاج علاقة "إبداعية" مع آخر "إسرائيلي" ذات سمات إنسانية إلا فيما ندر، بسببٍ من غيابه وبسبب من حضوره أيضاً، فكان الحاضرُ إنسانياً منه طارئاً أو بمحض الصدفة، لقد كان هناك جُدُرٌ مرتفعة مادية وإعلامية قبل أن يرتفع هذا الجدار الأفعى الذي يمزقنا ويمزق صورنا الآن، ويشتغل على تخريب صورة ذاكرتنا وصورة غدنا أيضاً. هذه الصور القليلة الطارئة أو لنقل الاستثنائية التي ستقرأون بعضها لاحقاً ربما ستشكّل لاحقاً نواة صور أخرى، يمكن للآخر أن يوسِّع أطرها، لكن لا بشائر راهنة لذلك. وعلى الرغم من أن هذا العمر لا يمكن تعريفه الآن دون هذا الآخر، الذي لم يفعل شيئاً في تشكيل نسيج إنساني، بل تغلغل في نسيجنا كي يمزقه ويحل محله عبر محاولة إقصائه، فإن صورة هذا العمر تنطوي أيضاً على صور الآخر، فلا صورة يمكن تعريفها دون تعريف تلك الصور الغائبة بفعل حضور تلك الصورة الظاهرة. لنتعلق بالأمل قليلاً أو على الأقل بوهمه.

أحاول أن اشتغل الآن على ذاكرة تمتد على مدى عمري كله، أحاول نبشها، صور تحضر بسرعة وأخرى تحتاج إلى نبش حقيقي في ثنايا الذاكرة: من هو الإسرائيلي لدي؟ ومن هو اليهودي؟ هل هما كائنان اثنان أم هل هما كائن واحد؟! هل هناك من هو كلاهما ومن هو أحدهما فقط؟ بالتأكيد هناك الصور كلها، ولكن هناك ... بعيداً والأمر في غاية التشابك والتعقيد، وهو كذلك في كل الأحوال، لذلك، فإن ما أثبته هنا من صور هي بعض ما يمكن للورق أن يلتقطه بعدستي الذاكرة والمخيلة.

إنها الصور المتتابعة في شريط الذاكرة، ألتقطُ بعضها متعمداً سردها دون بلاغة! دون بلاغة على الإطلاق! أحاول قدر المستطاع تجريد "الصور" من بلاغتها ومن عفويتها أيضاً. ليس بغية الإقناع، بل بغية ترسيم صور (الآن) و(غداً)، ومرة أخرى، كي يتجلى فيها الجسد "جسدي" في أقصى ما يمكن للحرية أن تمنحني إياه.

إن النظر فيما بين ما كان وما سيكون لا يمكن التقاطه جميعه، فهناك مسافة هائلة لا يسهل التقاطها دون تفسيرٍ من قبل الآخر، تفسير ليس اعتذارياً وحسب، ولا يتضمن تعهداً مطلقاً بعدم التكرار فقط! بل بتفسير يخلق وقائع أخرى نقيضة لما كانت عليه الصورة في أفق تصورها في مخيلته، وفيما لواه الآخر من صور، وبمدى ما لديه من مخيلة لتصور بديل.

فيما يلي شذرات صور من الذاكرة، صور ليست فوتوغرافية وإن كان بإمكان كل واحدة منها أن تكون كذلك، ولكن: ما الفرق؟!

(1)

"إنها طائرات إسرائيلية" هذا ما قاله أبي حين سمعنا هديرها في السماء. ثم ثلاث رصاصات، فجأة صمَّتْ أذاننا أصوات انفجارات، وكأنها في البيت! لقد كانت في البيت، في الطابق العلوي والشقة المحاذية! أما شقتنا فقد تطاير زجاج نوافذها، وتطايرت أوراق أبي، ركضت أمي والتقطت أخي الصغير، وركضت بنا إلى آخر البيت، اشتعل حريق كبير في الشقة المحاذية، تسلل أبي إلى الخارج وبعد دقائق كان رجال الدفاع المدني والإطفائية يخمدون الحريق ... وما كادت تمضي دقائق أخرى حتى اشتعل حريق آخر في الطابق العلوي، تسلل أبي، وأحضر الدفاع المدني ثانية! لا أجد تفسيراً إلى الآن لماذا أبقانا أبي في البيت!

بعد القصف لم يغادر أبي البيت بل حشرنا في الردهة الضيقة بين المطبخ والحمام، وعلى مدى أسبوعين فرض أبي علينا؛ أمي الحامل وأخويي الصغيرين وأنا، البقاء منتعلين أحذيتنا، وكأننا على أهبة الاستعداد لمغادرة البيت! وفرضت علينا أمي تناول القليل من الجبن والخيار وكسرات من الخبز على مدى الأسبوعين، هل يمكن لخطر أن يكون أقرب من الخطر الذي كنا فيه! إلى الآن لا أدري ما الذي كان في ذهن والدي في ذلك الوقت! ربما كانت فكرة النزوح ثقيلة عليه، ولكنه كان يصارعها أيضاً بأحذيتنا التي كادت تخنق أصابع أقدامنا كما خنق دخان القنابل المتساقطة حناجرنا!

حينما خرجنا إلى فناء البيت في اليوم التالي كانت حجارة الطابق العلوي قد تساقطت فيه، إنها 10 دقائق فقط تلك التي فصلت ما بين ساعة قصف البيت وخروجنا كعادتنا إلى المدرسة، كان يمكن لنا أن نكون ضحية هذه الحجارة المتساقطة، إنها الدقائق العشر الفاصلة بين حياة وموت! يومها

مرت آليات عسكرية أمام البيت، وألقت علينا سكاكر!

كان ذلك في الخامس من حزيران العام 1967 في مثل هذا اليوم الذي أكمل فيه كتابة هذا المقطع! هل عليَّ أن أعثر على تفسير لماذا يقصف الإسرائيليون بيتاً يسكنه أب وأم حامل وثلاثة صغار لا يتجاوزون السابعة من العمر؟! هل عليَّ أن أبرر للطائرة فعلها؛ فأقول لأن علماً أردنياً كان يرفرف على بنية المدرسة القريبة منا، ولأن خيمة لبدو كانت جاثمة في قطعة الأرض الفاصلة ما بين بيتنا والمدرسة! هل يمثل علم وخيمة متجاوران رمزاً لموقع عسكري يسكنه أب وأم حامل وثلاثة صغار لا يتجاوزون السابعة! ربما.

ثلاثة أطفال منتصبون صباحاً
بين أحجار مرمية على الأرض
الثالث ينظر إلى جدار الطابق الثاني:
بعض أحجاره ناقصة!

(2)

كنت وقتها في السابعة من العمر حين كنت في زيارة لبيت جدي في القدس القديمة في العام 1967؛ وبعد شهر واحد من احتلال القوات الإسرائيلية لما تبقى من فلسطين.

رافقت خالي وزوجته وأولاده وبناته وأخواته بما فيهن أمي في زيارة لبيت في شارع يافا الواقع في الجزء الغربي من مدينة القدس، الذي كان قد احتل من قبل الإسرائيليين في العام 1948. كان البيت لعائلة يهودية، وكانت الزيارة رداً لزيارتها لبيت جدي في البلدة القديمة، كانت الزيارة حميمية جداً بين عائلتين عرفت فيما بعد أنهما لم تلتقيا مدة عشرين عاماً، كانت بوابة مندلبوم الفاصلة بين العائلتين كما كانت الفاصلة بين شطري المدينة. بعد قليل دخل مرتدياً بزة عسكرية! ابن العائلة اليهودية! إذن، 19 عاماً غيَّرت الكثير! إنهم الآن هناك في الجهة الأخرى. إن الزيارة، على حميميتها، لم تكن سوى مجاملة للذكريات، ولم تتكرر! لقد أنجزت العائلتان ما يوجبُه التاريخ، وانتهى الأمر!

الكبار في العائلتين
يتعانقون بحرارة
الصغار يحملقون
يصافحون بأقل من برود وبأقل من حرارة أيضاً

(3)

في النصف الأول من السبعينيات كان المستوطنون اليهود يمرون من أمام بيتنا في البيرة بسياراتهم الحديثة، يقفون أمام بائع الخضار، ويملأون سياراتهم بالخضار والفواكه الطازجة.

- لماذا يشترون الخضار والفواكه من عندنا؟

- لأنها أجود وأرخص!

الآن لم يعد المستوطنون يدخلون البلدة! ولم يعد لدينا الكثير من الخضار والفواكه الطازجة، أما القليل الذي لدينا فيشتريه الإسرائيليون، يبيعونه في أسواق تل أبيب ويصدرون النخب الأول منه إلى أوروبا على أنه زراعة إسرائيلية، ويلفظون خضارهم وفاكهتم المحقونة بالكيماويات في أسواقنا! لم يعد للبندورة رائحة ولا طعم!

بائع الخضار يحشو النقود في جيبه
يبتسم معتمر (الكيبا)
يلوِّح بيده
تنطلق السيارة
يقضم البائع تفاحة . . .
نقطة من عصيرها ينساب من بين أسنانه إلى ذقنه
إنها . . . طيبة!

(4)

كان جبل الطويل مكاناً نلوذ إليه، ونحن صغار، كنا نصطاد العصافير، نقف على قمته فنرى فضاء متسعاً أمامنا، كنا نرى كثبان الرمل المحيطة بأريحا، كان المدى منفتحاً تماماً أمامنا، فجأة سّيج الجبل، بات منطقة عسكرية، ولم تمض شهور قليلة حتى جثمت على قمته كتلة من البيوت الجاهزة المتحركة! لم نعد نستطيع الوصول إليه! غدت البيرة جورة نعيش في داخلها ولا نستطيع الارتقاء فوقها لنراها من فوق! أصبح الفوق مكاناً محظوراً علينا! أمتار قليلة تفصل بين آخر بيت في البلدة وبين الأسلاك الشائكة التي تحيط بما بات يسمى فيما بعد (مستوطنة جبل الطويل) أو كما يسميها المستوطنون (بسغوت)! جاءت (بسغوت) وانفقأ الأفق!

الصغير متسمرٌ أمام السياج
ظهره للكاميرا
وهناك قريباً خلف الأسلاك الشائكة
تظهر في زاوية الإطار . . . كرة ملونة!

(5)

لم أكن قد بلغت السادسة عشرة من العمر حين وجدت نفسي في غرفة التحقيق، هناك في السجن، في مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي . . . هناك ضغط المحقق بباطن بسطاره على خصيتيَ، كل ما كنت أراه في تلك اللحظة انسحب لونه منه! لا شيء يُرى! وهناك ضغط المحقق ظهري على جدار بنتوءات! أحسست بظهري، وكأن دبابيس بعدد مساماته تخترقه! وهناك وضعني المحقق تحت انكباب ماء بارد كالثلج أخذتُ انتفض كأن صعقات كهربائية متتالية لا تتوقف ترج جسدي! هناك أسمَعَني المحقق أصوات صراخ مرعب آت من أفواه سجناء آخرين أعرفُهم في غرف مجاورة! وهناك وبمحاذاة غرف التحقيق أمضيت في السجن خمسة أشهر وسبعة أيام.

لماذا كل ذلك؟ هل أقول إنني لا أعرف إلى الآن؟! هل لأنه مجرد اشتباه بالمشاركة في مظاهرة أو توزيع بيان مثلاً! إلى الآن لا أستطيع أن أمحو صورة الظلم المرعبة المنتشرة في ثنايا الذاكرة! وكأنها تحدث تماماً الآن!

جالساً على كرسي
لا يأبه برذاذ الماء البارد الذي يصله
ينظر إلي . . .
ساقه اليمنى على ساقه اليسرى
فقط ينظر إلي . . .
وأنا . . . أرتجف!

(6)

بعد 48 ساعة من الاعتقال في داخل حافلة تنقلت فينا بين ثلاثة سجون رام الله وبيت لحم والخيل ليلاً ونهاراً! كان ذلك في العام 1988 توقفت الحافلة ثانية من موقع انطلاقها من سجن رام الله المركزي، كنا ثمانية، اثنين اثنين مقيدون معاً بقيود بلاستكية كادت تعصر معاصمنا، وعيوننا معصوبة بقماشات بيضاء مخططة بلون أسود، تلك القماشات التي يستخدمها الجنود الإسرائيليون عادة في تنظيف بنادقهم. كان الجوع قد أخذ مأخذه منا. صعد جندي إلى الحافلة، كان وحيداً وعلى غير عادة الجنود، خاطبنا بالعربية:

- مساء الخير
- مساء النور
- هل تريدون شيئاً؟ يبدو أنكم جائعون! باستطاعتي شراء ساندويتشات لكم!
- نريد سجائر . . . وطعام . . . وأن نتبول أيضاً.

لساعتين كنا سجناء استثنائيين، وكان جندياً استثنائياً . . . أيضاً. لم أرَ كمثله قبل ذلك التاريخ ولا بعده! أتذكره كثيراً! لدي شعور قوي بأنه لم يستطع الصمود طويلاً في الجيش. أما أنا بقيت ثمانية أشهر في معتقل أنصار في صحراء النقب دون محاكمة، وتحت ذريعة أمنية سرية يكفلها قانون الاعتقال البريطاني المسمى بالاعتقال الإداري.

اثنين اثنين
في انتظار هبوط نوم لا يأتي
يدلف بسلاحه الشخصي وحيداً إلى الحافلة
آه . . . تحرّشٌ آخر!
أحسُّ بيديه . . .
إنها ناعمة . . .
يقطع القيد البلاستيكي . . .
وحين أتساءل في نفسي: لماذا؟
أحس بخطواته متجهة نحو اثنين آخرين!
ويجيب: لا أدري . . . هكذا!

(7)

"أورنا" المجندة الإسرائيلية في معتقل أنصار في صحراء النقب، "أورنا" ذات البزة العسكرية الضيقة المشدودة تماماً على جسدها، الجسد الذي تبدو تفاصيل تفاصيله، "أورنا" المجندة التي تدخل من بوابة المعتقل الرئيسية حاملة أوراق إفراج عن معتقلين، تدخل إلى غابة من الرجال في غابة من الخيام والأسلاك الشائكة: إنها "أورنا" المرأة الوحيدة التي يراها المنقطعون عن العالم في قلب الصحراء، وهناك تجتمع في المخيلة المأسورة ثلاث كلمات ذات أصلٍ واحد: الإفراج والفرَج والفرْج. فهل ثمة صلة؟!

هل يحدث ذلك بالمصادفة؟ قرار الإفراج عن سجين بيد امرأة، هي المرأة الوحيدة التي يراها السجناء، وبكامل أنوثتها، وبكامل تفاصيل جسدها! هل في الأمر ما هو ذو صلة ما بين السجن والجنس، في العربية لهاتين الكلمتين الحروف نفسها، ولكنها تختلف في الترتيب فقط؛ (ج، ن، س) تنتج "سجناً" وتنتج "جنساً" ولكليهما في حالة السجين معنى واحد متعدد الصور، إنه "الكبت"، وكلا المفردتين متعلق بحشر "الجسد" المفردة التي تختلف عنهما بحرف واحد فقط، ربما فيما أقول هنا مجرد لعبة لغوية أو ربما أكثر من ذلك . . . فاللغة في كل الأحوال لا يمكن لها أن تكون بريئة.

الآن أنا أرى ظهورهم
أما هي فأرى وجهها
هم جالسون
وأنا واقف
تنادي اسماً . . .
فيقف أحدنا
أما أنا . . . فأجلس!

(8)

كان ذلك في العام 1997 في الطائرة من المطار الذي نسميه "مطار اللد"، والذي يسميه الإسرائيليون "مطار بن غوريون"، كنت مجاوراً في مقعدي لرجل يهودي، رغب ابنه في أن يجلس في مقعدي المحاذي للنافذة، لم يرغب الأب في أن يطلب مني ذلك، أدركت أن الأمر يتعلق بذلك، بادرتُ إلى ذلك، فأومأت للصغير، فأخذ مكاني وأخذت مكانه، وبدا ذلك، وكأنه مقدمة لدردشة لم اعتدها في الطائرات، مع الأب، فكيف سيكون الأمر مع إسرائيلي مدني! هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها مع إسرائيلي مدني . . . إنها المرة الأولى التي لا وجود فيها لسلاح إسرائيلي يتوسط بيننا! كانت مشاعري متضاربة، ومع ذلك فقد كنت راغباً في هذه الدردشة، الإسرائيلي أستاذ جامعي في جامعة حيفا، يعتمر الكيبا. إنه يبدي رغبة في السلام ربما كالرغبة التي أبديها، لكن الفارق بيننا أنه يعيش مطمئناً في حيفا وأنا أعيش قلقاً في رام الله، وأنه يمتلك القدرة أكثر مني في فعل شيء ما ضد حكومته، ليس لأنني لا أستطيع تحويل تلك الرغبة إلى واقع فعلي، بل لأن لديه من المقدرة

في إيقاف ما أتعرض له ما يمكِّنه حقيقة من فعل ذلك، على الأقل على مستوى تلك القوة العسكرية المادية التي لم يستعمل سوى 1% منها (كما يرى رئيس الأركان السابق يعلون) ضد أبناء شعبي! آه ماذا لو قررت دولته استعمال 5% من هذه القوة؟ إنني أشك كثيراً في ذلك. هل كان يمكن لأستاذ الجامعة أن يستمر في الحديث عن العدل والحق والإنسانية والمساواة؟! إنني أشك في ذلك أيضاً.

في الطائرة...
أمنحه مقعدي
حتى صغيره يريد مكاني
أما أنا فأفرح
لأنه لم يكبر بعد.

(9)

في نيسان 2004 في رام الله حيث أسكن، الجنود محتجبون في داخل الدبابة، الدبابتين؛ إحداهما تخترق السمع تهدر في الشارع الخلفي للبيت، وثانيتهما جاثمة في الشارع الأمامي؛ أختلس نظرة من النافذة؛ إنها ضخمة، ومرعبة. فجأة تنطلق زخات من الرصاص، ننبطح أرضاً، نخبئ طفلينا تحت جسدينا؛ أمهما وأنا، أحس بارتجاف الأجساد الذي لا يتوقف، هل سيخترق الرصاص البيت؟!

تنحجب الصورة تماماً، الصوت هو الذي يهيمن على المشهد اللامرئي، لا شيء أراه، صورة الدبابة في المخيلة، ولكن الدبابة حقيقة هي هنا، هنا أمام البيت! المكان ليس ساحة عسكرية، لماذا تهرس الدبابات المدينة؟! على صوت الرصاص أخذت أقرأ قصة لابنتي الصغيرة، توقفت، تلعثمت، الكلمات انحبست في الحلق، لم أستطع مداواة خوفها بقصة!... القصص ليست صالحة أحياناً!

- إنني خائفة!
-وأنا أيضاً!
- اقرأ لي قصة!
... كلمة، كلمتين، ثلاث، ...
تبعثرَ الكلام!
وصَمَتُّ!

(10)

لا يجد ضابط الأمن الذي يرتدي الملابس المدنية غضاضة في تركي لساعات طويلة، وصلت لثماني ساعات، في الانتظار، ثم يجردني أعوانه من ملابسي قبل أن يدخلوني إلى مكتبه، فأجد أشيائي الشخصية البسيطة ممددة على طاولته، وقد اجتهد في توزيعها ضمن تصنيف في مخيلته؛ صور أطفالي، ودفتر يومياتي، وهاتفي النقّال، وبطاقات أشخاص التقيتهم في سفرتي، وبعض نصوص قد تتحول إلى قصائد فيما بعد... ولأنه يعرف تماماً أن زيارتي للبنان ليس فيها ما يضر بأمنه أو أمن دولته، فهو يريد مني الاعتراف بما سماه الخمسة بالمئة المتعلقة بما اعتبره أسراري الشخصية التي يتوجب عليَّ البوح بها أمامه! إن انتهاك الشخصي فيما لا يبرره الأمني بات سلوكاً لا يضمر التمهين الضمني بل العلني، إذن هو يمتلك الحق في هذا الانتهاك، ولست متأكداً من أنه مقتنع بأن في ذلك حفظاً لأمن إسرائيل، بل في الأمر أمر آخر! إن رسومات أطفاله الجميلة التي تزين مكتبه كان يمكن لها أن تخلق لديه إشارات لتصور مختلف عنه وعني، وأن يملأ الفراغات التي تحمله تلك الرسومات البريئة بخيال يؤسس لذاكرة أخرى، ويتيح لصغاره أن يجنحوا بخيالهم بدلاً من أن ينقل إليهم تلك الرغبة غير المفهومة التي قد تقوض خيالهم، وتضع حداً لرسوماتهم/ صورهم، فينشغلون بإعادة إنتاج "التصور" الذي أنتجته "الأسطورة" القادرة على الإحلال والشطب والمبالغة في الإلغاء.

ربما... ربما ينادونني الآن
ربما بعد قليل... ربما الآن
أختلس نظرة إلى ساعتي! الوقت لا يمر
ربما هناك كاميرا مخفية في مكان ما في القاعةَ
أنا... أنا لا آبه بمرور الوقت... فهو لا يمر!!

***

هذه الحادثات/ الصور ليست حاضرة فقط بسبب اشتغال الذاكرة! لأن الذاكرة في كتابة من هذا النوع تستحضر حوادث كثيرة ذات صلة... ولكنها أكثر الحوادث ظهوراً بالمعنى الاستثنائي؛ أي حضورها كاستثناء ضمن ما تستدعيه الذاكرة من حادثات أخرى!

لماذا هذه الحوادث المستدعاة أشد حضوراً وأكثر تأثيراً؟... هل لأنها تشكل استثناء في سياق العلاقة مع "الإسرائيلي"؟ هل لأنها ما زالت قائمة (هنا والآن)؟ فالصور ما زالت تطغى على صورة الجندي، ولكنه جندي "أكثر حداثة" وأكثر تدججاً بأسلحة مبتكرة و"دقيقة" أيضاً. فما الذي فعله الإسرائيليون لتبديد صور وإحلال صور أخرى كي يكون ممكناً للصور الجديدة أن تحل محل تلك الصور التي تمتلئ بها الذاكرة كي أقول: يمكن لنا معاً أن نخلق صوراً أخرى لحياة أخرى ولأمل آخر! لا شيء سوى مراوغة أخرى!

ربما ما زال الوقت مبكراً ليعترف الإسرائيليون بفداحة الصورة وانفقاء التصور، ولكن، وبالتأكيد، فإنهم يلهجون، في جامعاتهم مثلاً، بالحرية والعدالة والتقدم والمساواة! ولكن كيف يمكن لأستاذ كان في الخدمة العسكرية والمتأهب دائماً ليكون فيها ثانية حين يستدعى، أن لا يحس بجسده وخياله ينشطران تماماً، وهو في لحظات القول هذه؟! كيف يمكن له أن يعيد التحامهما مرة أخرى؟! ألا يستدعي صوراً من مخزون ذاكرته لما قام به أو رآه معي أو مع سواي؟! هل يشتغل على صورة كي تحل صورة أخرى مكانها أم أنه ما زال يستهوي استحضار صور الماضي ليعيد إنتاجها ثانية وفق المبررات ذاتها، ولأنه بحاجة دائماً لتبرير وجوده أن يبرر سلوكاً معتاداً بات هو "القاعدة"، أما تصوراتي أنا فستغدو "الاستثناء" بالنسبة إليه! وهذا لا يهمه في شيء! فهو من عرق أنقى، ومن جنس أرقى، ومن دم ليس كأي دم! وهو يرى "تحضره"

أمام "وحشيتي"! وبالطبع فهو لا "يراني" وإن رأى فإنه يريدني كما يشتهي هو: ساكناً، صامتاً، وأخدم في مزرعته التي بناها على أنقاض بيوت كانت لبشر قبل أن تطأ قدمه هذه الأرض.

هذا ما لا أقوله أنا بل يقوله "هنا" و"الآن" "حاجزه العسكري" و"جداره الملتوي" و"مستوطناته المتخمة بالأسلحة" التي تبقيني في داخل "الجورة" التي فصّلها لي حين رأيت أول مستعمرة في حياتي رأي العين تجثم على جبل الطويل، حيث كنت أرى أفقاً حين كنت صغيراً، وباتت قمته محظورة علي، وسفحه بات على مرمى رصاصاته!

هل كان يمكن للصور الفوتوغرافية فيما لو كانت أن تشغِّل الذاكرة في مسارات أخرى غير تهويمات الذاكرة التي تؤثر في مسارات روايتها ما تبرع فيه الذاكرة حين تؤسطر حكاياتها وتحيلها إلى صور أخرى غير تلك الصور الممكنة، فيغدو الانتقاء والإقصاء أكثر حضوراً وتأثيراً في حالة الذاكرة أكثر من حضورها وتأثيرها في حالة الصورة الفوتوغرافية؟ هل الحالتان هما حالتان مفعمتان بالمراوغة؟

إن الصورة الغائبة في حالتي حاضرة في حالات أخرى، فهل فعلت للتصور ما لم تفعله الذاكرة؟ ربما! إن ما تقوله الصورة الفوتوغرافية الساكنة التي تتخذ من برهة الالتقاط قوتها هو ما يشي بإمكانيتها في التأثير على من يتفرج عليها، ولكن لم تعد هذه الصورة الساكنة صورة فريدة واستثنائية، بل باتت صورة تلقي بأثرها، ولكن هذا الأثر سرعان ما يتبدد أمام تدفق الصور التي تحيل الصور المتراكمة إلى ركام يستحيل معه الحفاظ على قوتها، لأن التدفق يخلق الإحلال من ناحية، ويخلق من ناحية أخرى التركيز على غيرها لحظة التفرج، ثم ما تلبث أن تحل صورة أخرى مكان السابقة فينتقل التركيز إلى الأخرى، وهكذا تغدو الصور الفوتوغرافية الثابتة عملياً صوراً متحركة، وكأنها شريط سينمائي متدفق لانهائي وغير قابل للتأمل، بل تغدو العين لاهثة أمام هذا الشريط في حركته الجنونية التي تلفظ اللحظة خلفها!

لحظة... هل يمكن للتأمل أن يتحقق دون إيقاف تدفق الشريط؟ هل نتوقف الآن أمام هذه الصورة بالتحديد؟ ولكن أية صورة هذه التي نحتاج إلى تسكينها أو نرغب في إبقاء العين مسلطة عليها؟ ليس ممكناً أن تتحول الحادثات التي رويتها لتغدو صوراً فوتوغرافية، بل يمكن لها أن تكون صوراً مرسومة بريشة المخيلة، وفي الحالتين؛ حالة صورة الذاكرة وحالة الصورة الفوتوغرافية، فإننا بحاجة إلى الخيال كي نلتقط "التصور" لما يمكن أن تكون عليه الصورة؛ سواء أكانت صورة الكاميرا أم صورة الخيال.

إن اقتلاع "الصورة" من المخيلة وإحلال "التصور" مكانها هو الذي يتيح لأستاذ الجامعة الإسرائيلي الذي أشرت إليها فيما سبق أن يبتلع الطعم، وأن لا يشتغل على مخيلة ما يمكن أن يكون، بل أن يشتغل على ما اختلقه تصوره لما كان، فينشغل بإعادة إنتاجه مرة ثانية وثالثة، ويترك لتدفق الصورة الأولى أن تتداعى في شريط زمني لا نهائي، يتيح له تبرير "صورته" مقابل إزاحة "صورتي"؛ سواء أكانت بعين الكاميرا أم بعين المخيلة.

آسف جداً! لم يتحْ الإسرائيليون لي أن أعرف لهم صوراً أخرى....

وأنا هنا في الجورة، التي لم يكتفوا بها بل جدّروها... ولم يكتفوا بذلك أيضاً... إنهم يهيلون التراب... الآن! فما الذي سيرونه؟ ما الذي سأراه؟

وسيم الكردي – مدير مركز القطان

المراجع

- بارث، رولان (1998). **العلبة النيرة – رسالة عن التصوير الشمسي "الفوطوكرافية"**. ط1، ت: إدريس القري – مراكش: فضاءات مستقبلية – دار وليلي للطباعة والنشر.
- LA Chambre Claire - Note sur la photographie - Roland Barthes.
- جيمسون، فردريك (1998). **التحول الثقافي**، ت: محمد الجندي، القاهرة: أكاديمية الفنون.
- The Jameson, Fredric. *Cultural Turn: Selected Writing on the postmodern,* 1983,1998)
- نشرت المادة بالإنجليزية في مجلة *Third Text* 2006 .Vol. 20 Issue ¾ May/July

من مساق "التعبير والرسوم".